الباب الثالث:

العمل العمراني في السنة النبوية الشريفة

الفصل الأول: إرشادات النبي (ﷺ)

رفض البطالة والتسول

جاءت سنة النبي (ﷺ) القولية والفعلية مؤكدةً لمنهاج القرآن الكريم في تحقيق خلافة الإنسان لله تعالى في الأرض وتطوير الحياة.

ومنهاج العمل الإنساني في الحياة عند النبي (ﷺ) مُنْتَزع من القرآن الكريم، والقرآن الكريم يسوي بين السعي في طلب الرزق، وبين الجهاد في سبيل الله تعالى، ويقول الله تعالى في سورة المزمل (٢٠): ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

في هذه الآية أنواع ثلاثة من المسلمين سامحهم الله تعالى في ترك قيام الليل مع النبي (ﷺ).

فالنوع الأول: سامحه الله تعالى بسبب المرض.

والنوع الثاني: سامحه الله تعالى بسبب السعي في الأرض لطلب الرزق عن طريق التجارة والزراعة والصناعة إلى آخره.

والنوع الثالث: سامحه الله تعالى بسبب الجهاد في سبيل الله.

وعند النظر بعين فاحصة إلى هذه الآية نرى أن الله تعالى قدم السعي في طلب الرزق على الجهاد في سبيل الله.

ولذلك يقول الإمام القرطبي – رحمة الله تعالى – (سوى الله تعالى في هذه الآية، بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال، للنفقة على النفس والعيال فكان هذا دليلًا على

أن كسب المال بمنزلة الجهاد في سبيل الله تعالى.

ويذهب إلى مثل هذا الرأي أيضًا د/ سيد طنطاوي في تفسيره الوسيط. وفي القرآن الكريم أيضًا قول الله تعالى في سورة الملك (١٥): ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

في هذه الآية يؤكد الحق – سبحانه وتعالى – بأن تفضل على الإنسان بتمكينه من الحياة على الأرض، وجعل هذه الحياة سهلةً، وذلك بتسوية الأرض، وخلق أساسيات الحياة عليها، أو بلغة زماننا، وضع البنية الأساسية في الأرض، ويبقى على الإنسان أن يستغل هذه الهبات الإلهية العظيمة ويزرع الأرض، ويطور الحياة بالتجارة والصناعة، وكل ما يحتاج من مواد أولية أو جدها الحق – سبحانه وتعالى – في الأرض وهو في الآية يأمرنا بالسعي في الأرض والأكل في رزقه.

وبعض الناس يفهمون أن الأكل من الرزق – الله تعالى –يعني الأكل من الزرع، والثمار الموجودة بطبيعة في الأرض – أي التي أوجدها – الله تعالى – من غير عمل الإنسان – ويمكن لهذا الفهم أن يكون مقبولًا عند بدايات الحياة، وندرة وجود الإنسان على الأرض، أما وقد ازدحمت الحياة بالناس، فإن موارد الغابات من الثمار والزروع لا تكاد تكفي مجموعةً قليلةً من البشر، ولذلك فقول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ (الملك:١٥)؛ يعني: ازرعوا واصنعوا واستخرجوا كنوز الأرض، واجعلوا لأنفسكم حياةً كريمةً عليها، والرزق هنا هو العمل في طلب الرزق، فالأمة التي تملك الرزق المباشر – كالبترول مثلًا – يمكن أن تبدده في سنوات قليلة، والأمة التي تملك العمل فإنها تملك ثروةً لا يبددها الزمان، بل تتجدد وتنمو بتراكم الخبرة المكتسبة من العمل، وكل هذا نلمسه في وقتنا الحاضر.

هذه إشارة موجزة لمنهاج القرآن الكريم في ترسيخ قيم العمل في بناء الحضارة الإنسانية، ومن هذا المنهاج استقى النبي (ﷺ) منهاجه، وهذه الجملة من توجيهاته (ﷺ) لأمته في عمارة الأرض، وتطوير الحياة.

(١) قوله (ﷺ): «**إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلةً؛ فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليفعل، فله بذلك أجر**». (مسند أحمد ٣/ ٩ ط بيروت).

في هذا الحديث يقول النبي (ﷺ) إذا قامت القيمة والرجل منكم يعمل في حقله

يغرس الفسائل، وهي الشجيرات الصغيرة ... قامت القيامة وأوشك العالم كله في الدمار، وبقيت شجيرة صغيرة في يد هذا الرجل، فإذا استطاع أن يغرسها قبل أن يصل التدمير إلى المكان الذي يقف فيه، فعليه أن يغرسها، وسوف يكون له بذلك أجر كبير عند الله سبحانه وتعالى.

وكل الذين يدعون إلى العمل والإنتاج في الماضي والحاضر والمستقبل تتوارى دعواتهم أمام هذا النص الجليل، ومن واجب الدعاة إلى - الله تعالى - في بلاد المسلمين أن يجعلوا من هذا النص منهاجًا لدعوتهم، لأن النبي (ﷺ) يطلب من المسلم أن يحرص على العمل الدنيوي اليدوي إلى ما بعد قيام الساعة لو استطاع ذلك.

(٢) ويقول النبي (ﷺ) وهو يحث على العمل اليدوي: «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده**».[١]

قد يأكل الإنسان من ميراث والديه أو أحدهما، وقد يأكل من المال الذي يكسبه أولاده، وهذا وذاك مفروض ومباح لا شيء فيه، ولكن النبي (ﷺ) يجعل أفضل الطعام للعبد وهو الذي يأكله من عمل يده، ويستدل على ذلك بأن هذه الميزة لا تقف عند الإنسان العادي، بل هي محور وجود الإنسان الفرد، فنبي الله تعالى داود - عليه السلام - كان يأكل من عمل يده، ولم تشفع له النبوة والاصطفاء في أن يأكل من عمل يد غيره من الناس.

(٣) والنبي (ﷺ) يجعل جوهر كرامة الإنسان الأساسية في العمل مهما كان شأن هذا العمل طالما أنه يقع في دائرة المباح فيقول: «**لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره، فيبيعها، فيكف الله وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه**».[٢]

في هذا الحديث نظرة إلى قيمة العمل في حياة الإنسان، فهو - كما أسلفنا - عماد الكرامة والعزة الإنسانية، فها هو الحبيب المصطفى (ﷺ) يرى أن قطع الحطب وحمله على الظهر وبيعه - للحصول على ثمرة العمل - خير من سؤال الناس - بما فيهم العصبة

١- أخرجه البخاري في فتح الباري في كتاب البيوع بابا كسب الرجل وعمله بيده.

٢- أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، وابن ماجه في كتاب الزكاة باب كراهة المسألة ١/ ٥٨٨.

والقرابة – سواء أعطوه وأشبعوا حاجاته أم منعوه.

فالعطاء والمنع لا قيمة لهما بعد صدور السؤال من الإنسان، فالقضية عند النبي (ﷺ) هي أن تسأل أو تعمل، وليست قضية عطاء ومنع، لأن السؤال يلغي مهمة الإنسان في الخلافة، ويدخله دائرة العجز.

والنبي (ﷺ) يقول: اتق الله ولا تعجز؛ لأن العجز إلغاء للخلافة، ومحو للإنسانية، والله تعالى قد أعطى الإنسان قدرات كثيرة يستطيع أن يعمل بها، ولو فقد عضوًا أو أكثر من أعضائه فهو قادر دائمًا حتى الموت، أما أن يترك الإنسان العمل، ويلجأ للتسول بحجة العجز أو بحجة أنه ينتمي إلى ولي معين، فذاك ما يرفضه رسول الله (ﷺ).

ولا يقف على عظمة هذا الحديث إلا من يدرس سيكولوجية – نفسية – المتسول، ويدرك مدى الانحطاط الذي أصاب هذه النفس التي خلقها الله – تعالى – كريمةً عزيزةً، وكيف أن العاطل عن العمل لا يفكر في خير أبدًا، وكيف أن الرجل العاطل من السهل أن يفرط في دينه وعرضه وكل مقدس له، ولا يشعر لذلك بشيء من الحزن والأسى كما نظن ونحن نشاهده من بعيد.

إن القعود عن العمل كون لديه أخلاقيات وأنماطًا من السلوك لا أصل لهما في كل الأديان السماوية، أو التجارب الإنسانية، ومن هنا جاء حديث النبي (ﷺ) علاجًا كافيًا وبلسمًا شافيًا.

(٤) سُئِل رسول الله (ﷺ): أي الكسب أطيب؟ فأجاب: «عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور».[١] والرسول (ﷺ) يركز في توجيهاته الشريفة على عمل اليد.

وقد يقول قائل: لقد تقدمت الصناعة وأصبحت الآلات هي التي تصنع، وهذا القول مردود عليه لأن الآلات التي تصنع صنعها الإنسان بيده، قبل أن تصنع هي منتجاتها.

والرسول (ﷺ) يركز في أحاديثه على الأساسيات ويترك الفرعيات لأنها في تغير وتطور دائم لا حدود له، ومع تقدم الصناعة في كل دول العالم، فلا غنى عن العمل اليدوي أبدًا، هذا من ناحية.

١- أخرجه الترمذي في كتاب الأحكام باب أن الوالد يأخذ من مال ٣/ ٦٣٠ والدارمي في كتاب البيوع باب في الكسب وعمل الرجل بيده ٢/ ١٦٢، طبعة دار المحاسن، القاهرة.

ومن ناحية أخرى فالنبي (ﷺ) يلفت نظرنا – وهو يسبق الزمن – إلى أنه إذا جاء الوقت الذي تقوم فيه الآلات بكل شيء فلا يجوز للإنسان الفرد أن يترك العمل اليدوي، لأن في ذلك هلاكه، واعتلال صحته بما يُسَمى بأمراض الرفاهية، مثل أمراض القلب وتصلب الشرايين، والشيخوخة المبكرة، وفوق ذلك تعطيل الجهاز الإنساني الذي خلقه الله تعالى للعمل وللحركة حتى أثناء النوم.

(٥) ويُرْوَى أن الرسول (ﷺ) قد سلم على رجل فأدرك خشونةً في يده فسأله: «ما بال كفيك قد أملجتا؟» فيقول الصحابي: من أثر العمل يا رسول الله، فيرفع الرسول (ﷺ) كفيه أمام جمع من الصحابة ويقول: «كفان يحبهما الله ورسوله».

وليس بعد هذا دلالة على احترام العمل اليدوي الدنيوي – كما يحلو للبعض أن يسميه – لأن العمل اليدوي هو خلافة الله تعالى للإنسان في الأرض، وهو من هذه الناحية يُعْتَبر جوهر الإنسان الفرد في رحلته الحياتية، بمعنى أن الإنسان لا يعمل إنسان يفقد ذاته، بل يفقد معنى وجوده في الحياة.

ويسير بنا الحديث الشريف عند نهايته إلى توجيه آخر للمصطفى (ﷺ) وهو «كفان يحبهما الله ورسوله» فإن أملجتا (أي تشققتا)، والله ورسوله يحبان الكفين المتشققتين، فأين مكان الأكف الناعمة من حب الله تعالى وحب رسوله (ﷺ) يشير الحديث إلى أنها لا تنال هذا الشرف، وإن كانت نعومتها من الجلوس للعبادة ليل نهار، لأن الله تعالى حدد أوقات العبادة، وترك أوقات العمل من غير تحديد، فمن الذي يحدد على الله تعالى من جديد.

(٦) ويقول رسول الله (ﷺ): «من أمسى كالًّا من عمل يده أمسى مغفورًا له».[1]

في هذا الحديث يدخل النبي (ﷺ) العمل الدنيوي اليدوي في الإطار العام للعبادة – ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦) – ويجعل من عناء العمل في الأرض والجهاد المترتب عليه سببًا للمغفرة من الذنوب، ولم يعين لنا رسول الله (ﷺ) أنواع الذنوب التي تُغْفر بعناء العمل، بل ترك باب الرحمة مفتوحًا حتى يحرك العاطفة الإيمانية ويوجهها لإعمار الأرض وتطوير الحياة.

١- ذكره صاحب كنز العمال (المتقي الهندي) ج٤/ ٧، حديث رقم ٩٢١٤، وعزاه إلى الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس.

(٧) رفض البطالة والتسول:

وبقدر ما يحض رسول الله (ﷺ) على العمل العمراني لخلافة الله – تعالى – في الأرض بقدر ما يرفض البطالة والتسول، ويعتبر ذلك خروجًا عن طبيعة الإنسان الخليقة، وانتكاسًا لفطرته العملية، وفي ذلك يقول:

أولًا: «من سأل الناس تكثرًا، فإنما يسأل جمرًا، فليستقل أو ليستكثر». [١]

ثانيًا: ويقول (ﷺ): «المسألة كلوح في وجه صاحبها يوم القيامة». [٢]

ثالثًا: ويروي أبو عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعي: «كنا عند رسول الله (ﷺ) فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ وكنا حديثي عهد ببيعته، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فقال – عليه الصلاة والسلام – : ألا تبايعون رسول الله؟ فبسطنا أيدينا وقلنا علام نبايعك؟ فقال على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس، وتسمعوا وتطيعوا ولا تسألوا الناس شيئًا».

يقول عوف بن مالك: «فلقد رأيت بعض أولئك النفر، يسقط سوط أحدهما فلا يسأل أحدًا يناوله إياه». [٣]

رابعًا: ويقول (ﷺ) لقبيصة بن المخارق: «يا قصبية؛ إن المسألة لا تُحمَل إلا لأحد ثلاث:

– رجل تحمل حمالةً – أي تحمل مالًا من طرف في خصومة بين فريقين من المسلمين – فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك.

– ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش.

– ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة، فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش.

وما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت؛ يأكلها صاحبها سحتًا». [٤]

١– أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، حديث رقم ١٠٥، طبعة عيسى الحلبي، وابن ماجه في كتاب الزكاة باب من سأل عن ظهر غنى ١/ ٥٨٩، طبعة دار إحساء الكتب العربية.

٢– أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة باب كم يعطي الرجل الواحد من الزكاة ٢/ ١١٩، طبعة المكتبة العصرية، بيروت.

٣– أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة ٢/ ١٢١.

٤– أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، حديث رقم ٩٤، ٩٥، طبعة عيسى الحلبي والنسائي في كتاب الزكاة، باب السيد

خامسًا: ويقول النبي (ﷺ): «اليد العليا خير من اليد السفلى»، ويقول (ﷺ): «واستعف عن السؤال وعن المسألة ما استطعت»، ويقول: «ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله».[1]

التعليق على الأحاديث الشريفة

في الحديث الأول: يقول النبي (ﷺ): «من سأل الناس تكثرًا فإنما يسأل جمرًا، فليستقل أو ليستكثر».

يوضح النبي (ﷺ) أن سؤال الناس لا يكون إلا للضرورة، وأن من يسأل الناس بغرض أن يثري عن طريق التسول فإنه لا يدخر مالًا وإنما يدخر نارًا في جسده يوم القيامة – بل لم يحدد ذلك – وأكاد ألمح أن الجمر الذي يدخره المتسول سيكون في الدنيا والآخرة على السواء.

ففي الدنيا: هذا الرجل قد جمع مالًا من غير عمل وجهد مبذول، فأصبحت ثروته المدخرة بلا رصيد من عمل، أي أنها لن تجد القبول الاجتماعي، لأن الإنسان يدخر حتى يحصل على قبول اجتماعي يناسب حجم ثروته، وكأن الثروة تتلخص في النهاية في كونها تساوي قدرها من القبول الاجتماعي والتقدير العام.

ولكن العاطل المتسول إذا جمع ثروةً وواجه بها المجتمع فإن المجتمع لن يشعر تجاهه باحترام أو تقدير، لأن هذه الثروة عبارة عن تلك القروش التي حصل عليها المتوسل من المجتمع أصلًا، وتراكمت حتى أصبحت ثروةً بلا رصيد اجتماعي لأنها تكونت من غير عمل وجهد مبذول.

تنطبق هذه الحال على تكوين الثروات من خلال الرشوة، أو الأعمال التي تضر الوطن وتضر حاضر المسلمين ومستقبلهم، وأصحاب هذه الثروات لا يشعرون براحة أو سعادة لأنهم يعرفون أنهم لا فضل لهم في تكوين هذه الثروات.

ومع الوقت، ورفض المجتمع السلبي لهذه الثروة بالإضافة إلى مؤاخذة الضمير الإيماني

السفلي ٥/ ٦١ طبعة دار الفكر.

١- أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة ٢/ ١٢١، وباب من يعطي من الصدقة ٢/ ١١٨.

والإنساني، فإن أصحاب هذه الثروة يشعرون بها وكأنها حجر يكوي جنوبهم وظهورهم وقلوبهم وعقولهم.

هذا في الدنيا؛ وفى الآخرة سيكون جمرًا حقيقيًّا لأن تكوين ثروة من غير عمل يُعْتَبر نسفًا لفكرة الخلافة من أساسها، والنبي (ﷺ) يضع المتسول والمرتشي، وكل الذين يحصلون على المال من غير عمل أمام هذه الحقائق، ويترك لهم الاختيار.

وفي الحديث الثاني: يقول النبي (ﷺ): «المسألة كلوح في وجه صاحبها يوم القيامة».

في هذا الحديث يبين لنا الرسول (ﷺ) أن المسألة – أي التسول – ستكون علامةً في وجه السائل يوم القيامة ليعرف كل الخلق وكل البشر أن هذا الإنسان ترك واجب الخلافة والعمل في إعمار الأرض، وسلك طريقًا سلبيًّا لجمع المال من غير جهد مبذول، وكأن – الله تعالى – يميزه بشيء يبعده عن الخلافة، لأن الخليفة الحقيقي لا يكون متسولاً، ولو كان التسول من النشاط الإنساني المركوز في الفطرة ما نزل الإنسان إلى الأرض، ولا كان له دور فيها.

وفي الحديث الثالث يروي أبو عبد الرحمن بن عوف بن مالك: «كنا عند رسول الله (ﷺ) فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ وكنا حديثي عهد ببيعته، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله!

فقال (ﷺ): ألا تبايعون رسول الله؟ فبسطنا أيدينا وقلنا علام نبايعك؟ فقال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصوات الخمس، وتسمعوا وتطيعوا ولا تسألوا الناس شيئًا.

يقول عوف بن مالك: فلقد رأيت بعض أولئك النفر، يسقط سوط أحدهم، فلا يسأل أحدًا يناوله إياه».

في هذا الحديث مبايعة موقعة بتشابك الأيدي، وإشهاد الحق – سبحانه وتعالى – ومثل هذه البيعة لا تكون على الأمور العادية كاستعمال السواك، وإطلاق اللحية، وستر العورة، والخشوع في الصلاة، والإكثار من الصدقة ... إلخ، إنما هذه البيعة لا تكون إلا على الأمور المهمة والخطيرة في الإسلام والتي تتعلق بمهمة الإنسان في الدنيا والآخرة.

وقد أمر الله تعالى نبيه (ﷺ) بأخذ البيعة على الرجال والنساء في الأمور المهمة،

وعن بيعة النساء يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (الممتحنة:١٢).

هذه البيعة تتم على ما يلي:

(١) عدم الإشراك بالله سبحانه وتعالى.

(٢) عدم السرقة.

(٣) عدم الزنا.

(٤) عدم قتل الأولاد.

(٥) الحفاظ على الأنساب والأعراض.

(٦) طاعة الرسول (ﷺ) الكاملة.

هذه المبادئ الستة تمت البيعة عليها بأمر مباشر من الله –سبحانه وتعالى– وهي أمور لا يمكن أن يكون للدين قوام بدونها، ولا تستغني عنها الحياة الكريمة العفيفة التي يريدها لنا الحق – سبحانه وتعالى –.

وبالنظر في هذه المبادئ نجد أن المخالفة فيها جميعًا تستوجب الحد الذي يصل إلى القتل في بعضها والجلد حدًّا أو تعزيرًا في بعضها الآخر، وعلى هذا تكون البيعة دائمًا على أمور جليلة وخطيرة في نفس الوقت.

وفي الحديث الشريف: نجد أن البيعة قد تمت على ما يلي:

١– عبادة الله وعدم الإشراك به.

٢– السمع والطاعة؛ أي الطاعة الكاملة بعد سماع الأمر الديني أو قراءته.

٣– ترك سؤال الناس: وقد نُكِّرت كلمة (شيئًا) لتفيد العموم والشمول لكل الأشياء.

هذه مبادئ ثلاثة:

يتعلق الأمر الأول: منها بأساس العقيدة الحقيقة (عدم الإشراك بالله تعالى).

ويتعلق الثاني: بالخضوع للدين والطاعة فيه، وهذه الطاعة في الدين تجلب لصاحبها

السعادة في الدنيا والآخرة.

والأمر الثالث: يتعلق بجوهر خلافة الإنسان لله تعالى في الأرض، واعتماده على نفسه، وحل مشكلاته بطريق الكدح والعمل المستمر، وليس بطريق التسول عند البعض وادعاء الكرامات والخرافات والسحر عند البعض الآخر.

والصحابة – رضوان الله عليهم – كانوا في غاية اليقظة والفهم في التعامل مع النص الديني، فراوي الحديث أبو عبد الرحمن عوف بن مالك يقول: لقد رأيت أولئك النفر – وغيرهم – يسقط سوط أحدهم، فلا يسأل أحدًا يناوله إياه.

لقد جُبِلوا بعد هذا الحديث على الاعتماد على النفس، لأن الأمر الديني كان يتحول إلى ما يشبه الفطرة عند صحابة رسول الله (ﷺ).

فالسوط يسقط من الفارس وهو على جواده، فلا يطلب من أحد من المترجلين أن يناوله إياه، مع أن البيعة كانت على الاعتماد على النفس في حل المشكلات وإقامة خلافة الله – تعالى – في ذات الإنسان قبل إقامتها في الأرض والحرص على العمل والإنتاج لتأسيس دولة قوية تدافع عن شرع الله – سبحانه وتعالى – وقد فعل الصحابة كل هذا، وزادوا عليه كعادتهم في التحرز عن المباحات.

إننا يجب أن نشعر بحرج من أنفسنا حين نراجع سلوك هؤلاء الأوائل وفهمهم الجيد لكتاب الله – تعالى – وسنة رسوله (ﷺ).

الحديث الرابع: يقول رسول الله (ﷺ) لقبيصة بن المخارق: «يا قبيصة؛ إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة:

– رجل تحمل حمالةً؛ أي تحمل مالًا من طرف في خصومة بين فريقين من المسلمين، فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك.

– ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش.

– ورجل أصابته فاقة، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة، فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش.

وما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت، يأكلها صاحبها سحتًا».

في الحديث السابق بايع الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله (ﷺ) على ترك

المسألة نهائيًّا، والاعتماد على النفس في الحصول على الرزق، وحل المشكلات، لكن الإسلام دين واقعي وليس دينًا خياليًّا، فقد تحدث بعض كوارث في حياة الأفراد تقضي على ثروتهم أو تمنعهم من تكوين ثروة، وتمنعهم من الحصول على الكفاف من الرزق.

ولذلك فقد استثنى رسول الله (ﷺ) في هذا الحديث ثلاثة، أباح لهم المسألة إباحةً مؤقتةً وليست إباحةً مستمرةً، لأنه يرجو أمةً عاملةً منتجةً، ويرفض أن تكون أمته أمةً خاملةً متسولةً، ولذلك أباح السؤال لمن أُصِيب بكارثة في ماله إباحةً مؤقتةً، ولثلاث حالات فقط:

الحالة الأولى: رجل تدخل لفض نزاع بين رجلين أو أسرتين من المسلمين أو قبيلتين، وضمن أحد الطرفين في سداد ما عليه ولكنه لم يسدد، فقام هذا الرجل – الضامن – بالسداد، فقضى هذا السداد على كل ماله، فهنا يسمح له النبي (ﷺ) بالسؤال حتى يحصل على قوته فقط، وليس لتكوين ثروة كما يفعل بعض الناس.

الحالة الثانية: رجل أصابته جائحة – كارثة: مصيبة – قضت على كل ماله، فله أن يسأل حتى يحصل على القوت الضروري.

الحالة الثالثة: رجل أصابته فاقة – نتيجة مرض وعجز عن الكسب؛ فتحل له المسألة حتى يُشْفَى ويزاول عمله وكسبه من جديد، إلا أن عجزه الحقيقي عن الكسب يحتاج من المجتمع قبل أن يُنْفَق عليه أن يتثبت من عجزه عن طريق إقرار ثلاثة من ذوي الخبرة والفطنة بعجز هذا الرجل عن الكسب.

وفي هذا دليل على الواجب الواقع على المجتمع والأفراد في مقاومة التسول، فهذا الرجل يموت جوعًا، ولكن رسول الله (ﷺ) يشترط لإطعامه إقرار ثلاثة من ذوي الخبرة بعدم قدرته على الكسب والعمل المنتج.

ويبقى في الحديث فوائد لا يمكن حصرها، ولكن يمكن أن نأخذ منها ما يلي:

(أ) عدم تهاون المجتمع مع المتسولين.

(ب) تعاون المجتمع مع العاملين المنتجين ومساعدتهم إذا ألمت بهم ظروف قاسية.

(ج) لا يُعْطَى أحد يدعي العجز إلا بإقرار ذوي الخبرة.

(د) أن يكون العطاء مؤقتًا وعلى قدر الحاجة حتى يعود إلى عمله، ولا يتكل على هذا العطاء.

وفي هذا محاربة من المجتمع للتسول والقعود عن العمل، ولا يريد رسول الله (ﷺ) بهذا الحديث أن يضيق على أصحاب الأعذار الثلاثة، ولكنه يحارب التسول، وهو لا يحارب التسول لذات التسول، ولكنه يحاربه لأنه يقضي على الخلافة، ويجعل الإنسان عاجزًا عن أداء دوره الذي خُلِق له، وهو إعمار الأرض وتطوير الحياة.

ولا يقتصر سؤال الناس على التسول كما يُفْهَم من النص الشريف، ولكنه يعم كل كسب غير حلال أو من غير عمل، فتدخل فيه الرشوة واستغلال النفوذ والسلطان ... إلى آخر هذه الطرق الشيطانية في الكسب والحصول على المال الحرام.

العلاج النفسي لمن يسأل الناس أموالهم

ينقلب التسول – مع الوقت – إلى عادة ذميمة تنطبع في سلوك المتسول وتشغل حيزًا من وجدانه، وهذا أخطر شيء يتعرض له المتسول وهو يمارس هذه العادة اللعينة.

ولذلك يضع رسول الله (ﷺ) العلاج الناجح لهذه العادة فيقول: «اليد العليا خير من اليد السفلى»[1]، وهو بذلك يصل إلى الغاية من سؤال الناس، عند بعض المتسولين، فالإنسان يتسول ليجد قوتًا من غير عمل، وهذه صفة الغالبية العظمى من المتسولين، وهناك من يتسول لكنز المال من غير عمل، ورسول الله (ﷺ) يقول لهؤلاء وهؤلاء: خاب مسعاكم وضل هدفكم لأنكم خسرتم ذاتكم، لقد تركتم العمل وهو رسالة الإنسان على الأرض، وظننتم أن المال هو الغاية من وراء العمل.

ولكن العمل غاية في نفسه، وها هو الذي عمل وكسب يعطيكم من فضل ماله، وهو أفضل منكم، وإن كان أقل منكم في النوافل، والرسول (ﷺ) حين يطلق كلمة اليد يطلقها لتعم كل الناس الذين يعطون؛ فهم خير بعطائهم، وهم أفضل من الذين يتسولون ولا يعملون، ولعل هذا هو أكبر تكريم للعمل والعاملين المنتجين.

وهذا العلاج النفسي في هذا الحديث يدور حول الغاية من كسب المال وأنها لا تتحقق إلا بالعمل؛ فالمال لا يضيف للإنسان قيمةً ورُقيًّا إلا إذا جاء عن طريق العمل، وهذا النوع

١- أخرجه الدار قطني في كتاب الزكاة، باب لا تحل الصدقة لغني ٢/ ١١٨، وأوب داود في كتاب الزكاة باب الاستعفاف في المسألة ٢/ ١٢١.

من العلاج النفسي للمتسول يتجه إلى أساس المرض، ولا يدور حول المرض كما يفعل الطب النفسي المعاصر.

ويقول رسول الله (ﷺ):

« ... **فاستعف عن السؤال، وعن المسألة ما استطعت**».

ويقول: «ومن يستعف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله».

في هذين الحديثين الشريفين يستنهض النبي (ﷺ) همم الذين تضطرهم ظروفهم للسؤال استثناءً وليس أصلًا في حياة المسلم العزيز الكريم، وأن الإنسان لو تحمل ما يعانيه بعض الشيء فإن الله تعالى يأتيه بالفرج، ولكن عن طريق العمل وبذل الجهد.

وهذا ما نلاحظه من قوله: «ومن يستعف، يستغن، يتصبر» فهذا التفاعل في الأفعال الثلاثة جهد وعرق، ولولا ذلك لجاءت الصيغة مغايرة؛ فكان يصبر مثلًا يأتي مكان يتصبر، وشتان ما بين الفعلين من بعد المسافة وتناهي المنزلة.

فالتصبر عمل دائم لحل المشكلة خطوةً خطوةً، فالتصبر هو رؤية الحل عن طريق العمل وبذل الجهد، والرسول (ﷺ) يقول للمتسول: لا تجلس متبلدًا تجاه المشكلة، ولكن انهض لحلها، وهذا ما يُؤْخَذ من التوجيه العام العمراني في السنة الشريفة، وأن العمل العمراني هو قوام الدولة القوية، وهو عماد الخلافة لله تعالى في الأرض.

***